

الاخوة والصدقات *

(انما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)

الصنو أشبه بالصنومنه بالشجرة التي يخرجان من أصلها أو الثمرة التي تخرج منها، والاخوان صنوان متساويان في الأصل والمنشأ وفي النبات والنمو ويتعاهدان بتربية واحدة في الغالب، فأجدر بالاخ أن يأنس بأخيه، ما لا يأنس بأمه وأبيه، وصاحبه وبنيه، لما ذكرنا من كمال المناسبة والمشاكلة التي هي علة الأُنس والحب، ولأن الوالدين من الرفعة وحقوق الاحترام والاحتشام ما يقف بالأنس بهما دون كماله، كما أن القيام على البنين بالتأديب والسيطرة مناف للاسترسال في الأنس بهم والانبساط اليهم في جميع الشؤون والاطوار، فكم من كلام وعمل بما يرتاح اليه يعرض عنها الانسان اذا كان على مرأى ومسمع من أصوله وفروعه ويقبل اليه مع إخوانه وصنوانه، أما الصاحبة (الزوجة) فلا يظهر هذا الوجه بالاضافة اليها لان الأنس بها لا يكاد يساويه أنس ولكن الاخ يفوقها في مناسبة الاتفاق في المنبت والتربية فان لاختلاف التربية أقوى تأثير في الالفة والمحبة والنفور والوحشة وهو العلة في التنازع بين الأزواج واختلال نظام العائلات المؤدي الى سقوط الامة في عوالم الشقاء ومهاوي المهلكات. ومزية أخرى يفضل بها الاخ الزوج وهي أن الاستعاضة عنه اذا فقد ليست مما يناله الكسب ويتوصل اليه بسمي أخيه الذي قد يهكى أن امرأة كان لها ابن وأخ وزوج وقعوا في غضب الحجاج فأراد الايقاع بهم وعهد الى المرأة أن تختار أحدهم كفيلا لها ليقتل من عداها فاختارت الاخ قائلة ان الابن والزوج يمكن الاعتياض عنهما وأما الاخ فلا عوض عنه. فاعجب الحجاج بقولها

(*) افتتح بها العدد ٤٩ المؤرخ في ٢٢ شوال سنة ١٣١٦ الموافق ٤ مارس سنة ١٨٩٩

لانها غلبت العقل والحكمة على الحنان والشهوة وعفا عن الجميع وقال لو اختارت غير
الاخ لقتلت الكل ولم ادع لها احدا

وبالجملة ان لكل قريب ونسيب مكانة تفضله من وجه على الآخر فلو الدين
التعظيم والاحترام والولد الرأفة والحنان واللاخ والزوج يطلق على الذكر والاشي
كما لا يخفى) ارتباح المساواة وأنس الكفو والنديد ولذلك يسمى الأخ شقيقا كأن
الاخوين شيء واحد شق نصفين ويسمى صنوا والصنوان هما قسيتا النخل فخرجان من
أصل واحد ويسمى كل من الرجل والمرأة المقترنين زوجا لاخر بملاحظة أنهم شيء
واحد في المعنى ظهر بصورتين ثبتت احدهما الاخرى وقد علمت ان مكانة الأخ
لا يحلها سواه وان الميل اليه ميل الى كفيح ونديد ترى له عليك مثل مالك عليه
بخلاف سائر الاقربين ولهذا سمي الصديق أخا وجاء القرآن يعلم الناس ويرشدهم
لأن يكونوا كلهم أصدقاء وأخوة ويحفظوا أباهم في هذه الاخوة الايمان بالله تعالى
وبما نزل من الحق فقال (انما المؤمنون اخوة) ورتب على ذلك قوله (فأصلحوا
بين اخويكم) وفي الحصر بانما والعطف بالفاء ووضع الظاهر في اخويكم موضع الضمير
ملا يخفى من تأكيد هذه الاخوة وقررها ثم قال (واتقوا الله) بأن تقوموا بحقوق
هذه الاخوة وما ترتب عليها من الاصلاح بالمساواة اذ لا وجه لمحاباة أحد والكل
اخوة (لعلكم ترحمون) في الدنيا والآخرة وما أجدر من يقوم على هذا الصراط
السوي بان يرحم

يسمى الناس كل صاحب صديقا وأخا وأين الصداقة والاخوة من كل من
تصعبه . اذ كرهنا ملخص رقيم كنت أرسلته في سنة ١٣٠٤ لصاحب آخيته في
بعض البلاد السورية (*) وهو ما جاء بعد كلام
« انني أحب ان اكتب اليك الآن كلمات تتعلق بهذا القرب الشريف (الاخ
الصديق) الذي أطلقته عليك وهي

قد اعتاد الناس اطلاق هذا القرب الشريف على كل من ارتبطوا معه برابطة

(*) ان الصديق الذي كتبت اليه هذا لم يثبت على صداقته بل حل عقدها

بعد ظهور المنار وانتشاره لما حدث له من الميل الى الخرافات

من روابط الاجتماع ولو كانت الرابطة منقصة العرى مقطعة الاسباب ، أو اتكت
ظها بعد ابرام ، وتداخت دعائمها بعد إحكام ، فإذا كانت رابطة المصاحبة هي
الاجتماع على القيل والقال ، واضاعة المال ، بنحو اكل وشرب ، وهو لعب ، فيجد
بنا أن ندعو ذويها أصحاب الوجوه وهم كثيرون حيث تكثر البطالة وتقل دواعي
العمران ، واذا كانت الجامعة بينهم الاشتراك في المنافع المالية والعلائق الشخصية
العسيلة فينبغي أن نسمى صاحبهم صحبة المصالح والحظوظ وهو لا يكثرون بكثرة
الاعمال التجارية والصناعية في المدن الناقعة الاسواق الكثيرة السكان الواقعة
العمران ، واذا كانت جامعهم هي المشاكلة في الاخلاق والسجايا فهو لا هم الذين
يصح اطلاق لقب الصاحب على آحادهم بغير قيد وصحبهم هي الصحبة الحقيقية
وهم فرق كثيرة لاختلاف السجايا وتباين الاخلاق ، واكثر أفراد المتصاحبين من
الانواع المتقدمة الذكر لا يعرفون معنى الصداقة وان أكثرها من الثروة بلفظها
لان أساسها الذي يقوم عليه بناؤها هو الصدق في السر والعلن ، والنية والشهود ، والقرب
والبعد ، وفي السراء والضراء ، والزعزع والرخاء ، وهو اعز من الكبريت الاحمر ولذلك
أنكر الصديق الوفي المنكرون فقال أحدهم

سمعنا بالصديق ولا نراه على التحقيق يوجد في الانام
واحسبه محالا أو مقولا على وجه المجاز من الكلام

وقال آخر

أيقنت ان المستحيل ثلاثة القول والمنقاء والخل الوفي

لعمرك ان غير الصدوق معذور باعتقاد استحالة وجود الصديق لما عنده من
الدليل الوجداني على ذلك والصدوق يعذر أيضا إذا ارتأى انه انفراد بالصدق في
بعض الاحايين لما يعانیه من الابتلاء بمراوغة المناقين ، ومخادعة الكاذبين ، ونظير
ذلك ما تنوقل عن السلطان محمود انه أقسم مرة انه لا يوجد في استانبول مسلم غيره
وغير فرسه وسيفه يريد عليه الرحمة انه لم يصدق معه غيرها ، وانه لا يثق الا بها ،
فاذا ظفر مثل هذا الصدوق بآخر مثله ربما ادعى انحصار الصداقة فيه وفي صديقه
وانما يصح ذلك بالنسبة لاختباره في وطن اقامته

ثم إن أقوى الصداقة أساساً ، وأضواها نبراساً ، وأمنعها من الانحلال ، وأبعدها عن الاختلال ، صداقة أرباب المبادئ الشريفة ، والمقاصد الجليلة ، فمما كان للصديقين منزع واحد ومشرب واحد هو مقصدهما من حياتهما أماهدا عليه وتأخيا من أجله فلا جرم ان اخوتها تكون أقوى من الاخوة النسبية ، ورابطة صداقتها أقوى من سائر الروابط الاجتماعية

نعم ان الثبات على الصداقة - كغيرها - مشروط بحسن الخلق وتهذيب النفس لأن فاسد الاخلاق عرضة للتغير والاقطلاب تتلاعب به عواصف الأهواء فتقلبه ذات اليمين وذات الشمال ، فلا يستقر له شأن ولا يثبت على حال ، فكيف تألفت في أوطاننا شركات تجارية وصناعية فبدد فساد أخلاق أفرادها شملها ، وشر منظوم أهلها ، وفرق اجتماعهم وجعلهم عبدة للمعتبرين ، ربما كان التنازع على شيء لا يبالى به عاقل ، ولا يلتفت إليه مهذب ، سبباً للفشل ، ونقض اليدين من العمل ، بل في تقص أساس رفع بناؤه ، وحل عرى أحكم قنبا ، وذلك كالتقدم في المجلس أو في الختم على الأوراق أو التحلي بلفظ رئيس أو مدير ونحوهما من الاقطاب أو مراعاة مصلحة شخصية (واخجلناه) وهذا هو السبب الذي قضى على الأمم الشرقية أو الاسلامية في هذه الأزمنة الاخيرة بالقطامع والتنازع حتى رزوا بالضعف والهبوط ، بل بالخسف والسقوط ، وصارت حالم - كما نرى - شر الاحوال ولا حول ولا قوة إلا بالله

قام فيهم مصلحون مجددون نهوا الافكار الغافلة ، وحركوا سواكن الهم فاستضاءت بنور الحقيقة بصائرهم ونشطت للعمل اعضاءهم ، ساكت الجادة وأنت البيوت من أبوابها حتى كادت تبلغ الغاية لكن عارضها في سيرها وحال دون تمام العمل نفوذ العدو الغربي المتيقظ لما يقب نهضة هذه الفئة المصلحة من ايقاف نظامه في الشرق عن الامتداد بل من تحويل مده الى جزر لا يفيض بعده نائب ، وساعد العدو الغربي على معاكسة (كذا) الاصلاح الامير الشرقي الجاهل فكان عاملاً على نيل عرشه ، وانتزاع سلطانه ، وتقي أولئك المصلحون من الألاقى «الدواهي» ، والا محل لشرحه هنا ، وهم لا يزالون على سعيهم وتعاليمهم الشريفة لها من ذوي النفوس الزكية والعقول الصافية المحل الاول والمقام الاثني ، وبانبغات أشمتها في

أفكارهم، واضائها أرجاء قلوبهم، تدب فيهم حرارة الفيرة على الدين والوطن وما بهد
انفعال الفيرة الا الاخذ بوسائل العمل ومقاصده «والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم»
« إن لكل عاقل غرضا صحيحاً من حياته وغرض هذا الطاجز انما هو خدمة
أمته ووطنه من طريق علمي تهديبي على ما يرشد اليه سير المصلحين، ولما كان هذا
أمرا عاما كليا وكل أمر كلي عام لا يفي به الواحد احتجت لاقتناء الاخوان الموازين
المساعدين الذين يوثق بنباتهم تهذيبهم وحسن مقاصدهم ونباتهم فلم اصطف في
طرابلس إلا واحدا أو اثنين من صنفنا (أهل العلم) وقد اصطفيتك أنت من
أهل ... (١) لما رأيته فيك من سمو الأفكار، والنظر في حوادث الكون بهين الاعتبار،
مع التبصر والتدبر، والتأسف والتحصر، بحيث لم يبق عندي ريب في انك على
المشرب الذي نستقي منه، والمنع الذي نتحبه، ولم يبق من شروط الاخوة الكبرى
الا الصدق والتبات الثابطين عن تهذيب الأخلاق (كذا في الاصل ولا أرى ان
قول الناس نتج كذا عن كذا عريا) وعندي ان اكتناه المرء واختباره التام الذي
تعرف به أخلاقه وسجاياه لا بد فيه من المعاشرة والمخالطة عدة سنين، لكن لما كان
مشر بنا الذي أومأنا اليه محالفا للتهذيب غالبا لا يكاد يجرح اليه إلا محب للكمال،
ولا يرسخ في نفس فاسدة الأخلاق والآداب، وكنتم مع قوة ميلكم اليه قد توقفت
(الصواب وهم) للمطالعة في كتاب إحياء العلوم الذي هو أحسن كتاب تهديبي
إسلامي - وهو أسنادي الأول - فهذا الامر ان اثباتي أملا قويا وحسن ظن
بصدقكم وثباتكم فمأهتكم على الولا وأطلقت عليكم لقب (الاخ الصديق) وسيزيد
الرجاء قوة وتمكنا بمرور الايام، ويصير الظن عين اليقين؛ (٢) ونكون في جنة الاعمال
المفيدة لإخواننا على سرر متقابلين، يوم يرفع العالم منا بعلمه، والتمول بماله، ونم أجر العاملين اه

(١) وضفا في الاصل قطعا مكان اسم البلد لتلا نطلع الحكومة على المقالة

فتبحث عن الصديق فتوقع به . أما وقد أعلن الدستور فقول انها بيروت

(٢) تقدم في هامش سابق ان الزمان جعل هذا الظن كذبا لا يقينا